«أصحاب الواحدة»

«الإربلي البحراني» و«ابن زريق البغدادي» و«أبو البقاء الرُّندي»

الفجيعة بالإنسان، والفجيعة بالحياة، والفجيعة بالوطن

د. عبد الكريم الأشتر(*)

-١-

يتناقل أهل الأدب تعريفًا يقولون فيه: «أصحاب الواحدة»، يريدون أناسًا من الشعراء شاعت على ألسنة الناس قصيدة واحدة من شعرهم، طغت على ما قالوه جميعًا. أو لعل بعضهم ضاع مجموع شعره فلم يتبق منه إلا القليل، وفيه هذه القصيدة التي أعجبت الناس، على اختلاف العصور.

فمن «أصحاب الواحدة» شاعر يُنسب إلى مدينة إربل، من أعمال الموصل في العراق، لأنه نشأ فيها، وإن كان ولد في البحرين(١). يوصف في مصادرنا القديمة، بجودة الفهم ودقة النظر في الشعر. عاش أيام حروب الإفرنج (الحروب الصليبية)، واتصل بصلاح الدين الأيوبي في دمشق، ومات بعد تحرير بيت المقدس (٥٨٣هـ) بعامين.

أما «واحدته» فقد مات منها أيضًا الجانب الذي قصد إليه منها، وهو جانب المديح(٢)، وبقي الجانب الإنساني الذي نقف هنا عنده. كذلك يكون الأمر في الحياة وفي الشعر جميعًا، لا يبقى من الأفعال والأقوال فيهما إلا ما ينفع الناس، أو ما يتصل بهمومهم وأوجاعهم، على مر الأيام.

تبدأ القصيدة، على عادة الشعراء، منذ أيام الجاهلية، ببكاء الأطلال.

(*) أستاذ الأدب والنقد في جامعة حلب.

(٢) مديح صاحب مدينة إربل.

وهو البكاء الذي صوَّر حنينهم إلى الأرض التي نشؤوا عليها. على أنه يصوِّر أيضًا حنين الإنسان إلى ماضي صباه.

وقد خلع الإربلي عليه، من سهولة التعبير، ويسره، واستجابته لحرارة النفس، وقوة نزوعها إلى الماضي الجميل، ما استوفى حزنه على كل ما فاته في الحياة:

رب دار بالغضا[٣]طال بِلاها، عكف الركب عليها فبكاها
درستْ إلا بقايا أسطرٍ سمح الدهر بها ثم محاها
كان لي فيها زمان وانقضى فسقى الله زماني وسقاها!

ولكنه ما لبث أن التفت إلى ما يشغله ويثير حزنه العميق الذي لفحتنا حرارته في بكاء الأطلال، فكأنه قصد إلى بكاء كل جميل في حياة الإنسان: الصِبا والحب ووفاء الضمير:

قل لجيرانٍ: مواثيقُهمُ كلما أحكمتُها رثّت عُراها

فالمسألة إذن تدور من حول الموقف الإنساني السائر على مرّ الزمان: الماضي الآفل، وتحوّل القلوب عن مودّاتها القديمة.

ولكنه يختار هنا سببًا، يجعله، في ذاته، معنى من المعاني الإنسانية الخالدة، لأنه يربطه بحرص الإنسان على الكرامة، والترفع عن ورود الموارد السهلة التي تكثر فيها دِلاء الناس، ويحوم حولها الواردون من كل صنف، والطامعون في الموارد القريبة. وقد بلغ الإربلي فيها من الاستجابة لقوة الطبع، وقرب الصورة وقوتها معًا، وسطوع الألم، والاعتزاز بالنفس، ما جعل هذه الأبيات تسير على الألسنة، وترفع صاحبها إلى مراتب المذكورين في «أصحاب الواحدة»:

(٣) شجر صلب، واحدته غضاة. وأهل الغضا: أهل نجد لكثرته هناك.

كنت مشغوفًا بكم، إذ كنتمُ شجرًا لا يبلغ الطير ذُراها
لا تبيت الليل إلا دونها حَرَسٌ ترشح بالموت ظُباها
وإذا مُدَّت إلى أغصانها كفُّ جانٍ قُطعت دون

تلك هي صور الماضي التي يشيّعها الإربلي، إلى الحاضر القائم:

فتراخى الأمر حتى أصبحت هَمَلاً يطمع فيها من يراها

لم يتبق له منها إذن إلا ما لا يقبله الرجل الغيور:

لا يراني الله أرعى روضة سهلة الأكناف من شاء رعاها
تخصب الأرض فلا أطرقها رائدًا إلا إذا عزّ حماها!

لم يجد الإربلي، في التعبير عن خيبته وألمه وأنفته جميعًا، خيرًا من صورة الأرض التي يعيش عليها، لالتصاقها به وقوة دَلالتها. ولكن النفس ما تزال تغالبه. وفي القلب ندوب كثيرة. وليس ينفع الكلام الجميل في خديعة القلوب، فليستدع إذن علاجها بقوة البأس، وليقف من نفسه مواقف الرجولة التي تليق بالرجال، وليستعن في ذلك بطبّ القلوب وتفسير أهوائها الغالبة:

وإذا ما طمع أغرى بكم عرض اليأس لنفسى فثناها
فصبابات الهوى أولها طمع النفس، وهذا منتهاها!

وليضع الفأس إذن، آخر الأمر، في أصل الشجرة، بعد أن امتدت فروعُها في القلب، وليُحكِمْ، على نفسه، إغلاق الباب، وسد المنافذ من كل جهة:

لا تظنوا بي إليكم رجعةً كشف التجريب عن عيني عماها

إن ما أعجب الناس في هذه الأبيات موصول بالعجز عن اتخاذ هذا الموقف الإنساني الصعب في حياة كثير منهم. فلهذا حفظوها ورددوها. إن الفجيعة

بالإنسان، في آخر المطاف، تختزل أمرّ فجائع الحياة، وتغذي تربة كل الفنون.

– ٢ –

واحدة أخرى لعلها أكثر شيوعًا على الألسنة، إذ تصوِّر تجربة الغربة والحنين. وهي، في معنى من معانيها، تحمل الخيبة التي تتعدد صورها في حياة الناس، وتبقى، في جوهرها، تُعنى بتصوير حس الفجيعة بالحياة نفسها.

صاحب هذه الواحدة يدعى (ابن زُرَيْق البغدادي)(٤)، وقد أغفل ذكرَه أكثر مؤرِّخي الأدب. ولكن ما نعرفه، من خبر القصيدة، وما نقرؤه فيها، يكاد يكفي في استجماع بعض ما فات من أخبارها. رجل كان يضرب في الأرض سعيًا وراء الرزق. وقد خلّف، في بغداد، يومًا حبيبته وسافر إلى الأندلس، فيما تقول الروايات، القليلة التي تبقَّت لنا، ليستر فاقةً أصابته، أو ليجمع بعض المال ويعود به إليها.

فلما وقف بين يدي عبد الرحمن أبي الخيبر الأندلسي وأنشده مديحه فيه، أحب عبد الرحمن، فيما تقول بعض الروايات، أن يختبره، فزعم له أن الشعر منحول، وأعطاه القليل من المال. فلم يملك ابن زريق إلا أن يعود إلى خان المسافرين الذي ينزل فيه، مغمومًا حزينًا لِما أحس من خيبة مسعاه، مع شدة الشوق إلى الحبيب البعيد. ثم لما فطن الوالي له وذكره وأرسل الرسل وراءه، وجدوه ميتًا في الخان، ووجدوا، عند رأسه، هذه القصيدة.

لاشك أن في الرواية أثرًا، قد يكون كبيرًا، من خيال الرواة، على نحو ما وقع للعذريين، من الشعراء الذين أحبوا حبًا بعيدًا عن التفكير في متعه الحسية. فإن كثيرًا من أخبار قصائدهم سيقت على هذا النحو الذي عرفناه في قصيدة

(٤) أبو الحسن عليّ بن زريق (ت حوالي ٤٢٠هـ). يُعرف بالكاتب الكوفي، وإن كان سكن الكرخ من بغداد. عمل في ديوان الرسائل. انظر تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ٣/ ٩٠– ٢.

(ابن زريق البغدادي). إذ إن تلك القصائد، مثل هذه القصيدة، تحمل من حرارة الوجدان ما يغري الخيال بتوشيتها، وإذكاء نار العاطفة فيها.

لم يكن يشغل ابن زريق، وقد قطع هذه الطريق الطويلة، من شرق الأرض إلى غربها، إلا التفكير في المحبوبة (وفي بعض الروايات أنها ابنة عمه) التي خلّفها في بغداد تنتظر عودته إليها. وكانت فيما تقول القصيدة، مانعت في سفره وتشبثت به، وبكت، فبكى معها. ثم أدركه الندم بعد أن خاب مسعاه، فأخذ يسترجع كلامها ويستذكر لومها بعد فوات الأوان، وقد أضنته الغربة والخيبة، واستبدّ به الحنين:

لا تعذليه، فإن العذل يولعه — قد قلتِ حقًّا ولكنْ ليس يسمعه
جاوزتِ في لومه حدًّا أضرّ به — من حيث قدّرتِ أن اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً — من عنفه فهو مضنى القلب موجعُه

وإذن فكم كلّفه الرحيل من بلد إلى بلد، سعيًا وراء الرزق! ما يكاد يؤوب حتى يعود فيشدّ الرحال، مضنى مزعَجًا عن أحبابه، لا يفوز من سعيه بما يكفيه، فكأن الأقدار كتبت عليه أن يسعى أبدًا ليقيس فضاء الله العريض(٥):

ما آب من سفر إلا وأزعجه — عزم على سفر بالرغم يزمعه
تأبى المطالب إلا أن تُكلّفَهُ — للرزق سعيًا ولكن ليس يجمعه
كأنما هو في حَل ومرتَحَل — موكّل بفضاء الله يذرعه!

ولكن صورة الحبيبة ماتزال تلوح من وراء الأفق: عذبة، يسطع وجهها بالنور، تشد على يديه، وتتشبث به وهي تبكي في صمت:

(٥) الذرع: القياس بالذراع!

أستودعُ اللهَ في بغداد لي قمرًا بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودّعني صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحىً وأدمعي مستهلاّت وأدمعه
علّ الليالي التي أضنت بفرقتنا جسمي ستجمعني يومًا وتجمعه

بهذا القرب في التعبير والتصوير، وبهذه الرقة، وهذا النفوذ في الإحساس، والحرارة في الروح، والصدق في البوح بما يعمر القلب من القهر والحزن، وصل ابن زريق إلى قلوب الناس التي طحنتها الغربة وأضناها الحنين، فرددوا أبيات قصيدته على مر الزمان، ورفعوها إلى مرتبة التفرد.

وقد بلغ من إعجاب النقَّاد بصورته الحية التي تصوره يقيس بذراعه فضاء الله، حدًّا وقف عنده نقادنا القدامى فكادوا من إعجابهم بنفوذ مؤداها، وسطوع الحركة فيها، وقوة أثرها في النفس، أن يفردوها. على أن لذعة الفراق، وضنى الارتحال، وحرقة الحنين، تقطر بها أبيات القصيدة وصورها كلها.

– ٣ –

و((واحدة)) ثالثة بكى فيها صاحبها (أبو البقاء الرُّندي)[٦] الأندلس، وهي على وشك السقوط، فكأنه بكى الأوطان التي توشك أن تسقط كلَّها، وحذر من مغبة القعود عنها. ولكنه لم يكن يريد بكاءها، قدر ما كان يريد تنبيه الغافلين عنها، وإيقاظ النائمين عن نصرتها، واستدعاء نجدتها ممن يستطيعها، في المغرب والمشرق.

(٦) من شعراء القرن السابع (ت ٦٨٤هـ) يُنسب إلى رُندة، إلى الغرب من (مالقة). وُصف، في مصادرنا، بالبراعة في ((منظوم الكلام ومنثوره)). وكانت له صلة بمحمد بن الأحمد أمير غرناطة، وله فيه مدائح.

وقد كنت زرت الأندلس، فكنت كلما دخلت حاضرة ذكرها رأيته مشبوحًا على حيطانها، وسمعت صوته الحزين ينوح في داخلي، حتى وقفت في مُرْسية، أمام إحدى النواعير التي أقامها العرب في بساتينها، تصب الماء في المجاري الطويلة، تحمله وتدور به، وتعود تصبه في صبر وسكون، وهي تئن كأنها تشكو أهلها الذين رحلوا عنها، وخلّفوها وحدها في الفضاء الشاسع.

ففي تلك الوقفة الحزينة، عند غروب الشمس، سمعته يصرخ في الأحجار القديمة!

تراه كان يحس عمق المأساة وطولها، في حياة الذين استكانوا للدَّعة، وظنوا أنهم، لبعدهم عنها، ناجون منها، فربط بين مأساته ونواميس الحياة، فجعلها مأساة كل إنسان يقعد عن وطنه، على امتداد الزمان:

لكل شيء، إذا ما تمّ، نقصان فر يُغَرّ، بطيب العيش، إنسان
هي الأمور، كما شاهدتَّها، دُوَلٌ من سرّه زمن ساءته أزمان!

وشواهد التاريخ ناطقة، يستنطقها من أرادها: فأين ملوك اليمن، وشدّاد إرم، ومُلْك قارون، وعاد، وقحطان:

أتى على الكل أمر لا مردَّ له حتى قضَوْا، فكأن القوم ما كانوا

فمن هاهنا تقع مأساة الأندلس التي تفككت ممالكها، فسقطت معظم حواضرها: بلنسية، ومُرسية، وشاطبة، وجيّان، وقرطبة، وإشبيلية:

قواعدٌ كنّ أركان البلاد، فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان؟

فاسمعوا اليوم صوتها الصارخ في الآفاق، وبكاءها وحنينها:

حتى المحاريب تبكي، وهي جامدة حتى المنابر ترثي، وهي عيدان!

فيا أيها الغافلون! هل تظنون أنكم تخرجون من مُلْك الزمان وحكم التاريخ؟

يا غافلاً! وله في الدهر موعظة إن كنت في سِنةٍ فالدهر يقظان
وماشيًا مَرِحًا يلهيه موطنه أبعد حمصٍ[٧] تَغرُّ المرءَ أوطان؟

ويا أيها القادرون! هذا حكم التاريخ: لو قعدتم عنا، فسنكون نحن الطريق إليكم:

يا راكبين عتاق الخيل ضامرةً كأنها، في مجال السبق، عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفةً كأنها، في ظلام النقع، نيران
وراتعين وراء البحر في دَعَةٍ لهم بأوطانهم عزّ وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ؟ فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم أسرى وقتلى فما يهتز إنسان

ثم يأخذ يتلفت في كل اتجاه:

ألا نفوس أبيّات لها هممٌ أما، على الخير، أنصار وأعوان؟

ويأخذ يصف حال الأندلسيين في الديار التي سقطت: أذلّةً يباعون في الأسواق بيع العبيد، يفرَّق بين الأم وابنها، وتُقاد البنات إلى «المكروه». فيئن في حرقة ذهبت في التاريخ مذهب الأمثال:

لمثلِ هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلامٌ وإيمان!

ولكن، ما الذي يجعلني أذكره اليوم، هذا الشاعر الذي بكى الأندلس، بعد أن تركتُه يومًا، عند الغروب، في أحد بساتين مُرْسية؟

(٧) إشبيلية.